العمارة المملوكية

تعني كلمة مماليك العبيد , وكانوا أصلا من عبيد ملوك الايوبيين , وكانوا غرباء عن البلاد لايحتكمون بأهلها ولايتكلمون اللغة العربية . ويقال ان الملك الصالح بن العادل ابتاع نحو الف مملوك وجعل منهم امراء دولته وبنى لهم قصورا عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضة قرب مقياس النيل .

وقد زادها مكانها الطبيعي مناعة وجمالا لان النيل يتفرع هناك الى فرعين وكان يدعى عند تفرعه بالبحر لعظم اتساعه فسمي هولاء بالمماليك البحرية من سنة 1250م – 1382م ( 648- 923ه ) ومنها اشتق اسم دولتهم تمييزا لها عن دولة المماليك الشراكسة او البرجية ( 1382م – 1516م ) ( 792- 923ه ) وهكذا فقد حكموا مصر مدة قرنين ونصف القرن .

وتولى حكم مصر حلال هذه الفترة 23 سلطانا من المماليك البحرية الذين جاءوا من بلاد القفجاق , ومن هذا العدد فقط حكم اربعة منهم مدة طويلة وهم بيبرس وقلاوون والناصر وحسن .

لقد جمعت العمارة والفنون المملوكية بين الاساليب المصرية المحلية من طولونية وفاطمية وايوبية ومغربية وهكذا تكون من ذالك المزيج المتنوع عمارة مملوكية مميزة .

واذا كانت قد ظهرت انواع من العمائر المدنية الجديدة من الخانات والوكالات والاسبلة والكتاتيب فقد بقي للضريح والمدرسة من النوع الديني مركز الصدارة واصبح المسجد متاثر بعمارتهما في كثير من الاحيان او تابعا لهما .

وكان الالامراء يتبعون سنة سلاطينهم في بناء الجوامع والمدارس والمقابر والخوانق والتكايا . واهم مميزات العمارة في عصر المماليك :

1. مواد البناء : امتازت باستخدام مواد مختلفة أغلبها من أحجار مجلوبة من المحاجر المحيطة بالقاهرة بجبل المقطم والجبل الاحمر , فقد عني بقطع الاحجار وتنسيقها في الابنية المختلفة ’ اذ نشاهده في الماذن التي اصبحت ارق وارشق مما كانت عليه فقد استخدم في بنائها الحجر المتقن النحت ذو الالوان المختلفة كالاحمر والاصفر والابيض الناصع البياض , كما اتخذت الواجهات طابعا جديدا واصبحت الحجارة عنصر قائما بذاته .

كما استخدم الاجر بجوار الحجارة ولكن على نطاق ضيق وخاصة في بناء بعض الاقبية والقباب والماذن وكسيت بعد ذالك بالملاط , واستعمل الجبس في لصق الحجارة وكان يضاف اليها نسبة من الرماد لزيادة تماسكها .

1. العمود : امتازت مساجد القاهرة المملوكية بطريقة استخدام الروافع التي يرتكز عليها سقف البناء , فالاعمدة ذات طرز مختلفة اذ يتكون العمود عادة من ثلاث اجزاء قاعدة وبدن وتاج يعلوه طبان وهو قطعة خشبية تعتبر وسادة ترتكز عليها رجل العقد , وتتركب الاجزاء السابقة بوضعها فوق بعضها , وكان يوضع قطعة خشبية في مواضع التقاء البدن بالقاعدة والتاج ثم يصب بالرصاص السائل , ثم يوضع حزام من النحاس في موضع التقاء الكتل الثلاث . وترتكز الاعمدة على قواعد من مكعبات حجرية ثابتة على مستوى واحد , والقاعدة تكون ناقوسية مقلوبة , والبدن اسطواني وقليلا مايكون مثمن , اما التيجان فكانت على هيئة ناقوسية ثم ابتكرت التيجان ذات الاشكال المقرنصة والبصلية الشكل .
2. تزيين السقوف : السقوف كانت متنوعة منها ماكان يعمل من الخشب المسطح وتنقش العوارض التي تحملها نقشا جميلا محلى بالذهب , ومنها ذو الاقبية الحجرية . فالسقوف الخشبية المسطحة ذات مستويان احدهما يعلو الاخر , القسم العلوي هو الذي يتحمل الثقل ويكون من قطع خشبية كبيرة , اما السفلي فقد اهتم به المعمار ونقشه بنقش جميلا وزخرفه بنقوش جميلة وقسم الى مناطق مستطيلة تحيط بها مربعات صغيرة او مقعرة مستديرة وكل هذه المساحات مزخرفة بالزخارف النباتية المحورة الارابسك , اما السقوف ذات الاقبية الحجرية فقد كانت ذات اشكال متنوعة منها النصف دائرية والمدببة والمتقاطعة .
3. تزيين الواجهات : زاد الاعتناء في الواجهات في هذه الفترة واخذت عناصر جديدة تظهر وكان ذالك في التجاويف او الحنايا العمودية التي تفتح فيها النوافذ وتتوج هذه التجاويف عناصر زخرفية من المقرنصات .

كما استخدمت في الواجهات طريقة تتابع صفوف المداميك الافقية من الحجر ذات لون ابيض واصفر او اصفر واحمر واحيانا يلبس الحجر بالرخام الاسود , وفي اعلى الواجهات ابتكر طراز الكتابة ينتهي بافريز وتميزت ايضا بالتركيز على الزخرفة التي تتمثل في استخدام الوزرات في الجدران .

1. المداخل : احتلت المداخل مانة بارزة في الواجهة , ويبدو انها لم تتخذ في وسط الواجهة بل في بعض اركانها حتى لاتؤثر على وحدة اللوحة الزخرفية , وقد اكسب المعمار المدخل هيئة ضخمة اذ جعل جدرانها بارزة ومرتفعة عن بقية الجدران , كما يزخرف اعلى واجهات المداخل وجوانبها انواع من العقود المدببة والمستديرة ذات الرؤس المزخرفة باشكال مقرنصات , وكان للمساجد الكبيرة اكثر من مدخل . كما زخرف قمم الواجهات بزخارف نباتية هندسية تعلوها حليات مستديرة ومعينة الشكل تملؤها زخارف جميلة وكل هذا منحوت من الحجر وباسلوب دقيق .
2. الماذن : امتازت برشاقتها واعتدال ارتفاعها وتناسب اجزائها فشيدت من الحجر المتقن النحت ومعظمها ذات قاعدة مربعة تعلوها بدن مثمن ثم دورة علوية اسطوانية الشكل الى جانب ماداخلها من العناصر التي فيها حيوية من الحنايا المقرنصة والحليات الهندسية , وقد اتخذت في طريق من الواجهات بحيث يكون للمسجد مئذنة في ركن او مئذنتان في ركنين من أركانها .
3. القباب اجاد المماليك في بناء القباب فاتخذوا القباب الكبيرة والقبيبات الصغيرة باعلى المحراب او المداخل كما اقيمت فوق الاضرحة والمدافن وقد انتشرت في مصر انواع مختلفة من القباب التي امتازت بارتفاعها وتناسق ابعادها ووصلت بجمال خطوطها ورشاقتها وزخارفها بالنقش البارز من الخارج والداخل الى اقصى حدود الرشاقة والجمال , وقد كانت القباب في الفترة الاولى من حكم المماليك لاتتعدى الزخرفة في رقبة القبة من الخارج ولكن في العصر المملوكي الثاني اخذت شكلا اخر اذ زينت القبة كلها بنقوش عربية او هندسية وتشمل اوراق نباتية ثلاثية مفرغة الوسط اضافة الى زخارف منحوتة على الحجر .